المحاضرة الثانية: تاريخ الأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية

1- نشأة الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

لم تنشا الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية من فراغ، بل تولدت عبر مخاض وصراع كبير بين الافكار والقيم التي حاول الاستعمار الفرنسي طمسها وفقا لمشروعه الاستعماري الممنهج والذي يقوم على قوانين محددة ومخطط لها مسبقا، وقد شهدت تطورا كبيرا منذ بداية نشأتها، ولذلك انطلاقا من هدا الفصل يمكن توضيح الأفكار الآتية:

- ماهي الظروف التي أسهمت في تشكل النص الروائي بأبعاده المختلفة.
- أهم النصوص التي مثلت الإرهاصات الأولى للرواية.
- أبرز الموضوعات التي مثلتها الرواية.

أ. ماهية الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الأجنبية:

هي تلك الروايات التي ظهرت في الخمسينيات من القرن الماضي والتي مثلت اتجاها مهما وبارزا على مستوى الساحة الإبداعية الجزائرية والعربية وكذلك العالمية باعتبارها كتبت باللغة الفرنسية؛ وهذا ما أعطاها تميزا ومقروئية أوسع.

تميز الأدب الجزائري عن بقية الآداب العربية بسمة تعددية انبثقت من المكون الثقافي المتعدد والمرجعيات الفكرية والعرقية المتعددة وتكمن مواطن التعدد في الأجزاء التالية: المكون العربي الإسلامي والبعد العربي الإفريقي والمكون الأمازيغي البربري إضافة إلى المكون اللاتيني الفرنسي، وقد أفرز هذا التمازج أدبا جديدا ظهر في الساحة الأدبية الجزائرية وهو الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية.

ب. نشأة وإرهاصات الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية:

أشار الناقد الفرنسي جان دي جو في حديثه عن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية إلى أن أول نص جزائري بلسان فرنسي النص القصصي الذي كتبه محمد برحال عام 1891بعنوان "انتقام الشيخ"، الذي نشر في المجلة التونسية الجزائرية باعتباره أول رواية يكتبها جزائري باللغة الفرنسية.

ونظرا للقاء الفكري والأدبي بين الأدباء الجزائريين والفرنسيين في فترة الاستعمار ظهرت مجموعة من الكتابات باللغة الفرنسية أبرزها المجموعتين الشعريتين لكاتبها سالم القبي، الأولى: تحت عنوان": أساطير وأشعار الإسلام " Contes et poèmes de L'Islam سنة 1917،

أما الثانية: فكتبها سنة 1920وكانت تحت عنوان": أنداء المشر "،Orient Rosée كما كتب القايد بن الشريف سيرته الذاتية سنة 1921 بعنوان "أحمد بن مصطفى الكومي"، كما تلتها كتابات أخرى نذكرها رواية: "زهراء امرأة المنجمي Zohra la femme du mineur "لعبد القادر حاج حمو سنة ،1925 ورواية "مأمون بدايات مثل أعلى Mammon l'ébauche Dun idéa "لشكري خوجة سنة 1928.

إضافة إلى رواية" العلج أسير بربروسيا Eleuldaj captif des barbaresques " سنة 1929.

كما كتب جون عمروش في بداية الثمانينات مجموعة شعرية بعنوان: " الرماد" سنة 1934و"النجمة السرية " secrète l'Etoile سنة 1937.وبهذا تعددت الكتابات الأدبية التي شكلت بدايات أدب جديد يظهر في الأفق ويعبر عن الشخصية الجزائرية المتأصلة في مبادئها وعاداتها وتقاليدها والمتمسكة بعروبتها وإسلاميتها والناقمة على الظروف الاجتماعية والسياسية التي طرأت على البلاد، محاولة تغيير النظرة العدائية والعنصرية للاستعمار الفرنسي الذي لا يرى في الجزائري إلا التوحش والبربرية ولهذا أراد الكاتب الجزائري أن يصحح هذه النظرة انطلاقا مما كان يكتبه، واستمرت الكتابات الأدبية تسير في هذا المضمار حتى في سنوات الأربعينات.

شكلت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية ظاهرة ثقافية ولغوية متميزة، وأثارت بذلك جدلا كبيرا بين النقاد والدارسين، ولذلك يشير جان ديجو إلى أنه يمكننا أن نؤسس للرواية الجزائرية بالتعبير الفرنسي، بداية بالفترة الممتدة بين: سنة 1920وسنة:1945 فكانت أول محاولة سنة 1925مع عبد القادر حاج حمو بعنوان "زهرة امرأة عامل الناجم" تأثرا بالاتجاه الواقعي الطبيعي لإميل زولا، وكذلك كتب عبد القادر فكري بالاشتراك مع

روبير راندو حوارا قصصيا، يتميز بطابع سياسي بعنوان "رفاق الحديقة" سنة ،1933وفي سنة 1936كتب محمد ولد الشيخ رواية بعنوان "مريم وسط النخيل" شكلت هذه النصوص المتن الروائي الأول للرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية ، ولم تكن هذه الكتابات بالنسبة للنقاد سوى بدايات أولى لم ترقى إلى جنس الرواية بمعاييرها المحددة، نظرا لبعدها عن الواقع الاجتماعي ولم تصوره بعمق وتحليل موسع ولذلك لم تصنع في مخيلتها سوى صورة ضيقة عن واقع محدد ومضمر يحكي ظروفا خاصة واستثنائية تتعلق بالكاتب نفسه لكونها كانت أقرب إلى جنس السيرة الذاتية منه إلى جنس الرواية. لتأتي بعدها نصوصا روائية جديدة وأكثر نضجا على مستوى البناء والتشكيل النصي، ففي سنة 1942كتب علي الحمامي رواية بعنوان "إدريس" التي وصفت على أنها كتاب محرر في شكل رواية.

وتعد هذه المحاولات من الناحية الفنية أقرب إلى القصة الطويلة. واستطاع القراء منذ 1945التعرف قلة قليلة من الروائيين، الذين أخذو من التعبير الفرنسي أداتهم اللغوية الوحيد للتعبير عن واقع مجتمعاتهم، وعرفت هذه المرحلة ولادة جديدة للرواية الجزائرية، فنشرت مارجريت طاوس عميروش روايتها " الياقوتة السوداء" سنة 1947التي تعد سيرة ذاتية، وبعدها جميلة دباش من خلال روايتها "ليلى فتاة الجزائر "سنة 1947وفي سنة 1948نشر مالك بن نبي روايته" لبيك. تضاعفت المحاولات باللغة الفرنسية، إلى أن تحولت إلى ظاهرة أدبية وجنس أدبي قائم بذاته في فترة الخمسينات على يد كوكبة من الروائيين الجزائريين خريجي المدرسة الفرنسية، الذين أخدوا عن الثقافة الأجنبية الكثير دون الانسلاخ عن هويتهم الوطنية وثقافتهم العربية الاسلامية وكذلك الأمازيغية الوطنية، ليعبروا بلسان واحد عن أمة وثقافة وتاريخ موحد، ومن أبرز هؤولاء الروائيين نذكر:

*محمد ديب : الثلاثية (دار سبيطار–الحريق– النول) ، صيف إفريقي،

* مولود فرعون–ابن الفقير– الذكرى–الدروب الوعرة– الأرض والدم...

*مولود معمري: الربوة المنسية– الأفيون والعصا– غفوة العادل– العبور...

*وكاتب ياسين: نجمة– 1956المضلع النجمي1966

*وآسيا جبار: بوابة الذكريات – نساء الجزائر –ظل السلطانة –الحب والفانتازيا...

*ومالك حداد: التلميذ والدرس –رصيف الأزهار لا يجيب –سأهبك غزالة...

وغيرهم كثير.

أما بالنسبة للروائيين المعاصرين نجد:

*عمارة لخوص: البق والقرصان –كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك –القاهرة

الصغيرة...

*و ميساء باي: في البدء كان البحر –هل تسمع الجبال –لا ننظر إلى الوراء...

* وياسمينة خضرا : بما تحلم الذئاب –سننوات كابول –المعادلة الإفريقية –ليلة الرئيس الأخيرة...

وآخرون

هؤلاء الذين ركزوا في كتاباتهم إلى الدعوة إلى حوار الثقافات، باعتبارها ضرورة حيوية لمختلف الشعوب والحضارات، فالمثاقفة تفتح العلاقة بين الأنا والآخر، هذا الأنا الذي لا يستطيع أن يعرف نفسه إلا بالتعرف على الآخر، والانفتاح عليه دون التماهي فيه أو الانسلاخ عن القيم والمبادئ لبناء صرح ثقافي متين. كما تمثل إشكالية الصراع والحوار رغبة كامنة في محو الآخر وإلحاقه وفرض التبعية إليه، بنظرة فوقية عدوانية.

ت. أهم الموضوعات:

تميزت الرواية في بداياتها بتركيزها على البعد الجمالي للنص والاهتمام باللغة، حيث تأسس المخيال الروائي والنسيج النصي على قاعدة أو مبدأ "المقاسية" لنص كولونيالي بتصوراته الواقعية عن الإنسان الجزائري، تلك التصورات التي تنتجها الإيديولوجيا الكولونيالية، والتي ترى الإنسان العربي والإفريقي وفقا لرؤية دونية تحقيرية. وبالتالي قدمت النصوص الجزائرية الأولى صورة العربي الجزائري المسلم وفقا لرؤية فولكلورية استهلاكية، كما لم تخل هذه النصوص من كتابة مغامرات مبسطة وتافهة ، وحكايات غرامية بين الأهالي والفرنسيات، حيث صورت الجزائري غريزيا وساذجا، وطيبا وخبيثا دمويا، ولقد كانت هذه الروايات متوجهة إلى الآخر لتعرفه بمقدرتها اللغوية والأدبية في الكتابة بلغته بعيدا عن الهموم والصراعات والمشكلات المطروحة في الواقع إلا وفقا لإشارات ورموز إيحائية ، ومع بداية الثورة التحريرية بدأت الحركة الروائية تؤسس لنفسها متنا كان مرآة لذاتها ولطموح الإنسان في هذا الشمال الإفريقي التي بدأت تهزه براثن الحداثة. وبالتالي كان على منتجي الرواية باللغة الفرنسية خلق مسافة لتأمل التاريخ، ونقد الذات والآخر، وهنا بدأ الإعلان عن نص روائي جديد يبشر بإنسان جديد. تحمل الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية بعدا إنسانيا عميقا، كما تتضمن الروايات: بعدا أدبيا جماليا، وآخر سياسيا اجتماعيا. صورت الرواية الأوضاع الاجتماعية والسياسية المتردية، فلم تكن بعيدة عن معاناة الناس من الفقر المدقع، كما ركزوا على إبراز الصراع بين العلاقات الأسرية والاجتماعية السائدة ضمن الأعراف والتقاليد الموروثة التي تتحكم في العلاقات الاجتماعية عامة، إضافة إلى تركيزهم على الجانب الثقافي الذي تجلى كثيرا في إنتاجاتهم الأدبية.

2- اتجاهات الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

ظهرت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية في ظروف اجتماعية وسياسية وثقافية مضطربة، أي في ظروف سعى من خلالها الاستعمار إلى طمس الثقافة والهوية الوطنية ومحاربة اللغة العربية مما أكسب النص الروائي خصائص سردية استثنائية. ويهدف الغزو الاستعماري إلى التغلغل في الأراضي الشمال إفريقية ونهب خيراتهم وإذلالهم، بل كان الاستعمار أكثر تعقيدا وحوكمة للنيل من الأسس المعنوية والمميزات الحضارية وهذا ما انعكس على النتاج الأدبي، فظهر اتجاهين مختلفين في الرواية نذكرهما كالتالي:

- ✓ اتجاه مجدد أقبل على الثقافة الفرنسية وتأثر بالكتاب والروائيين الأوروبيين ولذلك احتل الإنسان الفرنسي حيزا واسعا في عالمه الروائي فتعددت نماذجه وشخصياته وأدواره، مركزا في روايته على سرد أعمال السلطات الفرنسية. وهذا ما وصفته ثلاثية محمد ديب باعتبارها موقفا حاسما اتجاه الظروف الاجتماعية والسياسية خلال الفترة الاستعمارية، من خلال محاولة التمسك بالهوية الوطنية ابتداءا من المكان الذي يصف أبسط الظروف المعيشية ، وبالتالي التركيز على الطبقة الفقيرة (دار سبيطار) لينتقل إلى القرية كفضاء أوسع نطل من خلاله على أسوأ الظروف التي يعيشها العامل البسيط واضطهاده من قبل ملاك الأراضي والمعمرين (الحريق)، ليتوسع الفضاء ويتطور نحو فضاء مادي وهو مصنع النسيج الذي استغلت فيه الطبقة العاملة أيم استغلال أين تبرز روح التكاثف الجماعي لأفراد وطن وحدته الظروف السيئة لينطلق نحو تصور عالم أفضل دون اضطهاد أو عبودية رغبة في الحريةوالانعتاق.
- ✓ اتجاه محافظ رافضا للتجديد والاحتكاك بالثقافة الفرنسية، واعتبره انتصارا للمستعمر. وهذا ماتمثله شخصة "حميد سراج" في رواية "الدار الكبيرة" باعتبارها شخصية محورية تمثل صورة المثقف المغترب داخل وطنه الأم، مغتربا في فكره باعتباره يدافع عن الوطنية والتمسك بالهوية الوطنية، ولذلك كان ملاحقا من طرف السلطات الاستعمارية، وبهذا كان حميد سراج صورة للمثقف، وبالتالي صورت الرواية واقع المثقف المضطهد، وهناك شخصية أب عمر وهو زوج عيني الذي مات مدافعا عن أفكاره، وكان سبب موته أنه يمتلك أفكارا تتدفق في رأسه. وبهذا تطورت شخصيات الرواية لتصبح أكثر نضجا وتمتلك القدرة على التغيير وإخراج المستعمر من أراضي الوطن، وهذا ما يؤسس لفكرة التكاثف والبطولة الجماعية لأجل تحقيق هدف واحد هو الاستقلال.

وإضافة إلى ذلك كانت الرواية صنفان:

إما:

1- **سيرة ذاتية** للكاتب يقدم من خلالها ملامح عن سيرته الذاتية.

2- **ثورية نضالية** هدفها فضح الاستعمار وتعليل أسباب الثورة ومخططاتها. وهنا تبنت الرواية اتجاها واقعيا وصنفت ضمن الأدب الواقعي، حيث يذهب الدارسون إلى أن المدرسة الواقعية دفعت بالكتاب على اختلاف ميولاتهم وثقافتهم إلى التعبير عن واقع بلادهم من فقر وبؤس، واستعباد، وظلم، وهجرة، وحرمان وتعطش للحرية والانعتاق، وغيرها من الموضوعات الجوهرية التي تناولوها في رواياتهم التي كانت ميدانا خصبا لتصوير الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، مستمدين مادتهم من المعاناة الفعلية للشعوب المضطهدة عسكريا وسياسيا وثقافيا وفكريا.